البنية الحكائية في قصة "مالك بن دينار" (التوابين)

The narrative structure in the story "Malik bin Dinar" (Al-Tawabin)

إعداد: أ. حسي هاجر؛ طالبة باحثة دكتوراه، جامعة ابن طفيل، القنيطرة، المغرب

Prepared by: **Hassi Hajar**: PhD Research Student, Ibn Tofail University, Kenitra, Morocco

الملخص:

تهدف هذه الدراسة من قصة مالك بن دينار إلى اعادة الاعتبار للترات السردي العربي مع الاشارة إلى الأساليب الفنية في الكتابة الأدبية العربية خلال القرنين الرابع والخامس الهجريين باتباع المنهج الوصفي الاستقرائي، عبر وصف الظواهر السردية في القصة والخروج بملاحظات تكون بمثابة قوانين مطردة في الكتابة السردية في هذه المرحلة التاريخية. وقد تو صلت الدراسة إلى عدة نتائج أهمها أن التراث السردي العربي يقوم على أساس الرواية الشفوية التي كانت تعد الوسيلة الأساس لتداول الأخبار والأحداث، لذلك فقوة القصة متوقف على قوة سندها فهي كانت تخضع لشروط الخبر، من صدق و كذب ويتوارى الجانب التخييلي. ويعرض مؤلف القصة السردية الخبرية بطريقة مشوقة من تقديم وعقدة وحل ونهاية محزنة أو سعيدة في الغالب، تحكيها صور لغوية بيانية او مجازية جذابة وتشرحها جمل سهلة مألوفة، فكل شيء قائم على اللغة لتأليف قصة ذات محتوى أخلاقي، وأوصت الدراسة بضرورة تسليط الضوء على هذا التراث الغني فيجب دراسته والاعتناء به لأنه يحتاج إلى أكثر من قراءة وأكثر من بحث وأكثر من منهج لما يتضمنه من أبعاد قيمية وفكرية وكذا فنية. وذلك في أفق إنشاء نظرية نقدية ملائمة للنص النثري العربي وخاصة النص السردي، لأن المجهود الفكري والنقدي والعربي راهن على الشعر أكثر من النقد.

الكلمات المفتاحية: البنية الحكائية – مالك بن دينار – قصة التوابين

Abstract:

This study aims from the story of Malik bin Dinar to reconsider the Arab narrative traditions with reference to the technical methods in Arabic literary writing during the fourth and fifth centuries AH by following the inductive descriptive approach, by describing the narrative phenomena in the story and making observations that serve as steady laws in narrative writing in these historical stage. The study reached several results, the most important of which is that the Arab narrative heritage is based on the oral narrative, which was the basis for the circulation of news and events. Therefore, the strength of the story depends on the strength of its support, as it was subject to the conditions of the news, of truth and lies, and the

imaginary side hides. The author of the narrative story presents the news in an interesting way of presentation, knot, solution and mostly sad or happy ending, told by attractive graphic or metaphorical linguistic images and explained by easy familiar sentences, everything is based on language to compose a story with moral content, and the study recommended the need to shed light on this rich heritage It must be studied and taken care of, because it requires more than one reading, more than one research, and more than one approach because of the value, intellectual and artistic dimensions it contains, in the horizon of establishing a critical theory appropriate to the Arabic prose text, especially the narrative text, because the intellectual, critical and Arab effort bet on poetry more than criticism.

Keywords: Narrative structure – Malik bin Dinar – the story of the repentant

المبحث الأول: الإطار المنهجي للدراسة

مقدمـــة:

كثيراً ما تنعت الإبداعات والإنتاجات الأدبية التراثية العربية، بغياب النسقية، وافتقارها لنقد نظري موضوعي يحتكم لأطر علمية ومعرفية ومنهجية متكاملة مبنية على تراكم تجريبي/ تنظيري وإجرائي، كما هو الشأن في وقتنا الحالي، طغيان النقد الانطباعي.

وبالرجوع إلى أبعد العصور عنا زمنياً وقيمتها التاريخية والحضارية بأبعادها العلمية الفكرية والثقافية الأدبية، نجد العصر العباسي كنموذج لمرحلة تاريخية من التوهج والإشعاع الحضاري، والثقافي، والازدهار الأدبي والعلمي، لأمتنا العربية والإسلامية، ببروز نوع من الكتابة، قد ندرجها فيما يصطلح عليها كامل كيلاني بـ" **الوعظ القصصي**[1]"، الذي استثمر طقوس وصنعة كتابة النصوص الدينية/الحديثية/والسيرية، وحقولها اللفظية، للاستجابة لإشكالات العصر، والتصدي للمشاكل الأخلاقية، والانحرافات العقدية التي عرفتها الأمة الإسلامية خلال هذه المرحلة التاريخية

(1) كامل الكلاني: النص القصصي، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، جميع الحقوق محفوظة للنشر رقم 8862 بتاريخ 2012/8.

بأسلوب الموعظة الحسنة وضرب المثل الذي يعد من الخطابات القوية التي أسس عليها الخطاب القرآني.

ولقد اتسمت الكثير من الكتب والمصادر التراثية في هذا العصر، بزخم من هذه النصوص السردية ذات الحمولات الدلالية المتضمنة لقوانين وأسس حياتية مروية على ألسنة رواة محترفين من الإخباريين، والرواة الترفيهيين التكسبيين، كرواة الأسواق والمجالس وبلاطات وقصور الملوك ورجالات الدولة والأغنياء، نصوص تشكلت معظمها من وحدات سردية متصلة بعضها ببعض تبعاً لتسلسل الأحداث، في قالب خبري بسيط، ونمط حكائي متبع، وتقاليد إبداعية وفنية مطردة، يقدم من خلالها المؤلف منهجه الأدبي والإبداعي، ورؤيته، ومواقفه السياسية والايديولوجية من العصر، مستثمراً قصص شخصيات وتجاربها، ونماذج مختلفة من المجتمع العربي والإسلامي، يجمع بينها الصراع الأبدي بين قيم الخير والشر، ومواقف تدعوا للتأسي والاعتبار، تنبثق من بنية الحكاية نفسها، تجربة إبداعية قد تكون السمة التي ميزت نوعاً من الإنتاجات الأدبية للحركات الإصلاحية والتصحيحية لهذه الحقبة التاريخية.

مشكلة الدراسة:

وإذا كان لكل دراسة غاية، فغايتنا من هذا البحث، الإجابة على الاسئلة المنهجية الآتية: ما المقصود بالبنية الحكائية ؟ وماهية تجلياتها في قصة مالك بن دينار؟ وتجليات البنية الدلالية في البناء السردي للنص؟

منهج الدراسي:

ولن تعطي الخطوات السابقة أكلها من دون المنهج الإستقرائي الوصفي الذي أثبت فعاليته مع النقد البنيوي والسيميائي الذي يهتم "بأدبية الأدب"، معتمدة في ذلك أدوات وآليات وإجراءات المنهجين السالفين بالترتيب: الوصف والتحليل أولا ثم التأويل والتفسير ثانيا.

أهداف الدراسة:

- إبراز دور الخطاب الديني الإصلاحي في بناء القصة خلال العصر العباسي.
- تبيان الخصائص الخطابية والفنية للنصوص القصصية القديمة من خلال دراسة قصة مالك بن دينار، دراسة بنيوية سردية.

سبب اختيار الموضوع:

إن اختيار هذا الموضوع لم يكن اعتباطيا، بل هو رغبة منا في التنقيب داخل التراث السردي العربي القديم وقد اخترنا "حكاية " مالك بن دينار" لأهميتها، في النسيج السردي وذلك بالاعتماد على المناهج الحديثة، وقد ثمت دراسة هذه القصة من الداخل، ثم انتقلنا بعد ذلك إلى الخارج عبر دلالات النص وتأويله، إذ حاولنا في هذا البحث الجمع بين ما هو نظري وما هو تطبيقي مع اعطاء أهمية كبرى للجانب التطبيقي لأنه يبرز شخصية الباحث.

المبحث الثاني: مدخل مفاهيمي في السرد

أولا: مفهوم السرد

السرد لغة: ورد تعريف السرد في "**لسان العرب**" لابن منظور بأنه: "**تَقْدمةُ الشيء للشيء تأْتي به متَّسقاً بعضُه في إثر بعض متتابعاً، و فلان يسرد الحديث سرداً إذا كان جَيِّد السياق له**"[1].

وقيل في الدلالة الاصطلاحية للسرد "**قص حدثاً أو أحداثاً أو خبراً أو أخباراً، سواء كان ذلك من صميم الحقيقة أومن ابتكار الخيال**"[2].

إن مصطلح السرد يحيل إلى: "**الحكاية التي تمثل المادة الخام الأولية، كما يختلف عن النص الذي يمثل الشكل النهائي و الواقع المادي الناجم عن امتزاج الحكاية بالسرد، فالسرد يتسم بالتتابع المنطقي**"[3]

ثانياً: مفهوم البنية الحكائية:

البنية: "**البناء نقيض الهدم، والبناء في اللغة هو التشييد والتركيب. وتجدر الإشارة إلى أن القرآن الكريم قد استخدم هذا الأصل نيفا وعشرين مرة على صورة الفعل (بنى) أو الأسماء (بناء) و(بنيان) و(مبني)، لكن لم ترد فيه ولا في النصوص القديمة كلمة (بنية) وقد تصوره اللغويون**

(1) ابن منظور: لسان العرب، مادة س و د، ج 3، ص 211.

(2) مجدي وهبة وكامل مهندس، معجم المصطلحات العربي في اللغة والأدب، مكتبة لبنان، بيروت، ط2، 1984، ص198 .

(3) ناصر عبد الرزاق الموافى: القصة العربية، عصر الابداع دراسة للسرد القصصي في القرن الرابع الهجري، تقديم: طاهي وادي، ط1، دار النشر للجامعات، القاهرة، 1995، ص.19

العرب على انه التركيب والصياغة. ومن هنا جاءت تسميتهم (للمبني) للمعلوم و(المبني) للمجهول"[1]

أما مفهوم البنية **اصطلاحا:**

البنية عند بياجي "**هي نسق من التحولات له قوانينه الخاصة** "[2] **وتتميز البنية حسب زكرياء إبراهيم بالخصائص الآتية" الكلية والتحولات، والتنظيم الذاتي"**[3].

الحكاية: عرفتها يمنى العيد كالآتي: **هي الفعل الذي يمارسه أشخاص بإقامة علاقات ما بينهم ينسجونها وتنمو بهم، فتتشابك وتنعقد وفق منطق خاص بها"**[4].

نبذة عن نص قصة مالك بن دينار:

أخذنا قصة "**مالك بن دينار**" من كتاب **(الثوابين)** لمؤلفه "**المقدسي**" الإمام الراوي والمحدث والشيخ الواعظ، من بين مجموعة من القصص ذات القيم الدينية والأخلاقية الوعظية، الأخلاقية الوعظية، عبر جرد واستعراض "**قصص وأخبار التائبين منذ "آدم" عليه السلام إلى زمن تأليف الكتاب**[5]؛ أي العصر العباسي، من ملائكة وأنبياء وصحابة وملوك، رجالاً ونساء، من مختلف فئات وطبقات المجتمع العربي والإسلامي، بهدف أخذ العبرة من تجاربهم الحياتية من المعصية إلى التوبة، في قالب سردي حكائي يعتمد الرواية لتداول تجارب من سبقهم، وإعادة سردها ضمن سياق اجتماعي وسياسي وديني وأدبي ترفيهي أيضاً. ومن ضمن مئات القصص والحكايات الجميلة والمعبرة والقيمة، وقع اختيارنا على **(قصة مالك بن دينار)** لأهميتها في النسيج السردي للمؤلف، حيث وجدنا أن الخطاب السردي فيها ينطوي على مدلولات كثيرة منها التاريخي والحقيقي، والخيالي، والديني، والاجتماعي، وتتأسس على علاقات التضاد التي تؤجج الصراع بين القيم الإنسانية المختلفة، مما يجعله نصاً لا يختلف كثيرا عن النصوص السردية للعصر الحديث شكلا ومضمونا.

تعج البنية الحكائية لقصة "**مالك بن دينار**" بمجموعة من الإسقاطات الفكرية والفلسفية والاجتماعية، سواء على مستوى الثنائيات الضدية والتكاملية، أو على مستوى تشكيل الشخصية

(1) صلاح فضل: نظرية البنائية في النقد الأدبي، دار الشروق، مصر، 1ط، 1998، ص120.
(2) زكريا إبراهيم: مشكلة البنية، ص47.
(3) المرجع نفسه: ص30.
(4) يمنى العيد: تقنية السرد الروائي في ضوء المنهج البنيوي، ص27.
(5) ابن قدامة، التوابين: ص5.

القصصية، واستثمار الزمكان من أجل الوصول الى الهدف الأكبر الذي هو الدرس الأخلاقي الناتج عن تجربة كيانية عميقة تمر بها الشخصية الرئيسة، وقد اتخذ مقالنا هذا اتجاهاً يصبو إلى تمييز خصائص وسمات البنية الحكائية للنص، ودورها في نسج وتشكيل الأحداث والشخصيات من جهة، وباعتبارها من أهم عناصر النص القصصي من جهة أخرى.

المبحث الثاني: البنية الحكائية في قصة "مالك بن دينار"

ملخص القصة:

كان "**مالك بن دينار**" شرطيا سكيراً، وقد اشترى جارية نفيسة، وحصلت على مكانة مهمة في قلبه وأحبها، ثم أنجب منها طفلة جميلة تدعى "**فاطمة**"، كان محتفيا بولادتها، ومغرما بجمال طفولتها، ولما راحت تشعر بعاطفة أبيها الغامرة، وأخذت تلاحظ عاداته وأفعالهُ، وبعد أن تعلق بها البطل تعلقا روحياً عميقا توفيت الصغيرة، من غير أن تذكر الحكاية سبب وفاتها، وقد وقع ذلك كالفاجعة على قلب أبيها. وبينما هو في ليلة من لياليه الخمرية، وهو ثمل غالبه النعاس، فشهد في منامه قيام الساعة بأهوالها، وظل ثتّين يطارده مما اضطره لطلب المساعدة من شيخ ورع صادفه في طريق هروبه، لم يغنيه ورعه عن خطر التنين، فنصحه بصعود جبل حتى إذا أدرك النار ناداه أطفال من ظهر الجبل كانت من ضمنهم ابنته التي خاطبته واعظة بالآية القرآنية "**يا أبت ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله**"[1]. ليكون نداؤها طوقَ النجاة، وتفسيراً لمعنى الرؤيا في تجربته الروحية نحو التوبة.

شخصيات القصة:

المتداول في الحقل السردي أن لكل حدث منجِز أو فاعل في سياق زمكاني؛ فالشخصية تظل بعدا أساسيا من أبعاد النص نظرا لقيمتها الوظيفية والدلالية، ولذلك وكإجراء تحليلي سنتوقف عند الشخصيات التي وردت في خبر "**مالك بن دينار**" بعد تعريف وجيز لمفهوم الشخصية Personnage.

ذكر مرشد احمد في تعريفه أن "**الشخصية مكونا من مكونات الحكي، لكونها تمثل العنصر الفعال الذي ينجز الأفعال التي تمتد وتترابط في مسار الحكاية**[2]" كما عرفها الدكتور "محمد بن عبد العظيم بنعزوز" بقوله: "**إن الشخصية هي أهم عنصر من العناصر البنائية للقصة، فهي المحرك**

(1) سورة الحديد، الآية 16.

(2) مرشد أحمد: البنية الدلالية في رواية إبراهيم نصر الله، ص 33.

لعجلة السرد، بل هي مادته الأساسية[1]"، إذن؛ ومن خلال هذين التعريفين يبدوان هذه القصة ستكون مشروع دراسة عدة شخصيات كل منها تضطلع بدور مهم في الأحداث، وهي كالآتي:

- **الراوي:** وهو شخصية إخبارية سردية أو شخصية من ورق، ويتحدث على لسان شخصيات القصة بالوكالة وينوب عنها:
- **مالك بن دينار:** شخصية رئيسة في القصة، شرطي، سكير، تائب، ارتبط بجارية وخلف منها الطفلة فاطمة. أسند إليه السارد حكي الأحداث فتحدث عن نفسه في علاقته بباقي الشخصيات في القصة.
- **الجارية:** جارية مالك بن دينار وأم ابنته فاطمة، شخصية تكاد تكون رئيسة من خلال تأثيرها الاجتماعي والنفسي على مسار حياة بطل القصة، فهي كانت نقطة بداية التحول والخلاص.
- **فاطمة:** ابنة مالك بن دينار الوحيدة، شخصية رئيسة بالنظر الى مساهماتها في تحول وتسلسل الأحداث، وتطور شخصية أبيها **(مالك بن دينار)** فهي الكائن المسؤول عن توليد عواطف متباينة في كيانه، وكانت سببا في توقفه عن شرب الخمر وتوبته أيضا، وسبب نجاته من الهلاك.
- **التنين الأسود:** إحدى شخصيات الآخرة وهو شخصية وظيفية غير آدمية **(قوى فاعلة)** تنتمي الى عالم الرؤيا الروحي الرمزي، فالتنين في الرؤية أداة العقاب الزاجرة الدافعة نحو التوبة، فهي شخصية واصلة، وهي من قاد مالك ابن دينار السكير نحو مالك بن دينار التائب، وكانت دافعا وسببا لحدوث التغيير والتطهير الروحي في الرؤيا.
- **أطفال الجبل:** شخصيات ثانوية رمزية وظيفية وهي جزء من مكونات فضاء الآخرة والجنة، وعلامة للطهر والقداسة كما هو في المتخيل الديني الاسلامي.
- **الشيخ:** شخصية من شخصيات الحكاية المؤطرة رجل مد يد المساعدة، وأهدى النصح لمالك ابن دينار في محنته مع التنين، وهو شخصية رمزية توجيهية معادلة لشخصية التنين، بحيث ساهمت بشكل كبير في تحول الأحداث، وتغير شخصية البطل.

(1) محمد بن عبد العظيم بنعزوز، قصة عبد النور بين الاستخفاء والظهور، (دراسة لقضايا الفضاء في السرد العربي القديم)، النادي الأدبي بالرياض، ط1، 1428هـ/ 2007م، ص10.

تتراوح شخصيات قصتنا بين شخصيات بشرية اجتماعية **(مالك بن دينار، زوجته الجارية، ابنته قبل وفاتها)**، وشخصيات دينية روحانية تنتمي لعالم الرؤيا، وهي بدورها تنقسم لقسمين:

- شخصيات آدمية (الشيخ، البنت، الأطفال).
- شخصيات حيوانية غرائبية (التنين).

ثم وترتبط هذه الشخصيات جميعها بالشخصية المحورية "**مالك بن دينار**" فهو الخيط الناظم لها جميعا، وتشكلها يسند أدوارا سردية وظيفية لباقي الشخصيات.

والملاحظ أيضا فيما يتعلق بالشخصيات غياب التسميات اللهم الشخصية الرئيسة مالك بن دينار وابنته فاطمة والقوى الفاعلة المتمثلة في فضاء الجنة والنار.

أحداث النص:

قبل الخوض في تحليل أحداث النص، يستحسن إجرائيا إعطاء تعريف موجز لمفهوم الحدث في السرد، بحيث أن الحدث هو "**كل ما تنتجه الشخصية أو تتلقاه وما يحدث لها، والحدث فعل كبير يتضمن مجموعة من الأفعال الصغرى، كما يتكون من أفعال منتجة وأفعال ملقاة**"[1]

- **الحدث الرئيس**

يمكن التمييز في القصة بين حدثين مرتبطين توازيا بين القصتين القصة الإطار هي **(حكاية مالك بن دينار)** ونجد فيها حدث رئيس هو شراء مالك بن دينار الجارية، وما تتناسل عنه من أحداث لاحقة هي:

أحداث زواج مالك بن دينار وموت ابنته	المشاعر المستخلصة
معاقرة الخمرة **(منهمكا على شرب الخمر)**	المتعة
شراء جارية **(إشتريت جارية نفيسة)**	الفخر
وقوع البطل مالك بن دينار في حب الجارية **(ووقعت مني أحسن موقع)**	الحب

1 محمد بنعزوز، معجم مصطلحات الأدب الاسلامي، دار نحوي، الرياض، ط 1، 1427 هـ / 2006م، ص7.

ولادة البنت وتعلقه بها لما بدأت تمشي **(ازدادت في قلبي حبا، وألفتني وألفتها.**	عاطفة الأبوة
منع الطفلة أباها شرب المسكر **(جاءت إلي وجاذبتني عليه وهرقته من ثوبي)**	النهم والمتعة، النصح
وفاة الطفلة وحزنه عليها **(فأكمدني حزنها)**	حزن
شرب الخمرة تأثرا بحدث الفقد **(بت ثملا من الخمر)**	الفقد

وحكاية مؤطَرة يتصدر فيها حدث النوم باقي الأحداث الأخرى التي تكون مشهد الرؤيا فهو الحدث الذي تتناسل عنه أحداث قصة الرؤيا وهي كالتالي:

أحداث القيامة والبعث	الشعور المرافق
حدث اكتشاف الثنيين (فإذا أنا بتنين أعظم)	الاندهاش والاستغراب
لثنيين لمالك بن دينار وهروبه منه (فمررت بين يديه هاربا فزعا مرعوبا)	الخوف
لقاء البطل بالشيخ واستجارته به (فسلمت عليه فرد السلام)	الأمان والأمان
عجز الشيخ عن حماية البطل ونصيحته اياه بمضاعفة السرعة **(فبكي الشيخ وقال لي: أنا ضعيف)، (ولكن مر وأسرع فلعل الله أن يتيح لك ما ينجيك منه)**	الوهن، الخوف الأمل
صعود البطل شرف القيامة ووصوله شرفات يوم القيامة **(فنظرت إلى هولها، وكدت أهوى فيها من فزع التنين)**	الاندهاش، الهلع
تنبيهه بالعودة من طبقات النار لكونه ليس من أهلها **(ارجع فلست من أهلها فاطمأننت)**	الإطمئنان
استمرار التنين في مطاردة البطل	الخوف
عودة البطل لطلب المساعدة من الشيخ.**(ياشيخ سألتك أن تجيرني)**	الأمان

نصح الشيخ البطل بقصد الجبل، للبحث عن وديعة له.	الخوف، الأمل
هروب البطل من التنين نحو الجبل.**(وليت إليه هاربا والتنين من ورائي)**	الخوف
مساعدة الملائكة للبطل برفع الستور والمصاريع **(فلعل لهذا البائس فيكم وديعة تجيره من عدوه.)**	الأمل، النجاة
اكتشاف واقتراب مالك بن دينار لأطفال الجبل (الآخرة)، **(أطفال بوجوه كالأقمار)**	الإعجاب، الاندهاش
انقادهم للبطل من عدوه التنين. **(ويحكم أشرفوا كلكم فقد قرب منه عدوه)**	الأمل بالنجاة
لقاء مالك بن دينار بابنته الميتة فاطمة **(أنا بابنتي التي ماتت قد أشرفت عليّ معهم)**	المفاجئة
بكاء وعناق فاطمة فرحا بلقاء أبيها **(فلما رأتني بكت... فقالت: أبي والله ثم وثبت في كفه)**	الحزن، الحنين
فرار التنين **(ومدت يدها اليمنى فولى هاربا)**	القوة، الهزيمة، النجاة

أحداث مشهد تأويل الرؤية والتوبة	المشاعر المرافقة
جلوس فاطمة في حجر ابيها ودعوته إلى العودة إلى الله **(الم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله)**	الإيمان، الخشوع، خوف الله
تأثر مالك بن دينار **(فبكيت)**	التأثر، الخشوع
تفاجئ مالك بن دينار بعلم الأطفال الموتى بالقرآن **(وأنتم تعرفون القرآن؟)**	اندهاش، غفلة
طلبه تفسير ماحدث له تأويل الرؤية **(فأخبريني عن التنين...فأخبريني عن الشيخ... وما تصنعون في هذا الجبل)**	الرغبة في المعرفة

تاويل فاطمة لرؤية أبيها **(عملك السوء قويته...عملك الصالح ضعفته... ننتظر كم تقدمون علينا فنشفع لكم)**	العصيان والخطأ المغفرة
صحوة ويقضة مالك بن دينار **(فانتبهت فزعا وأصبحت)**	الخوف
توبة مالك بن دينار **(فأرقت المسكر وكسرت الآنية)**	اليقين، الاطمئنان

الملاحظ في قصة مالك بن دينار هو أن الأحداث كانت تتميز بسبك منظم وحبكة متقنة، عقدتها وفات المولودة فاطمة، بحيث أن السرد كان متسلسلا، وأما العامل الرابط بين كل الأحداث، فهو عامل السببية في مجرى الأحداث التي طرأت على حياة مالك ابن دينار، فلا بد من حوث هزة قوية لحياة هذا الأخير، ليحصل التطهير، الذي لا بد له من سبب قوي، لكي يرجع عما كان عليه من غفلة وضلال.

دوافـع القصة:

لكل حدث دوافع تحفز الشخصيات على انجازه، وقصة مالك بن دينار بأحداثها المترابطة، تضم دوافع عدة بحسب حجم الأفعال المرتبطة بالقصة الإطار و المؤطرة، التي تخدم الغاية التي كتب من أجلها النص والمتمثلة في دافع أو دوافع:

- **دافع الارشاد والتوجيه:** وهي غاية دعوية يبطنها خطاب القصة من خلال قالب سردي ممتع، مستثمرا الحدث الرئيس والأكبر، لهاته القصة وهو "توبة مالك ابن دينار وأبعاده الأخلاقية والاجتماعية"[1].
- **دافع الخدمة والسخرة:** ويتمثل في شراء مالك بن دينار الجارية، لخدمته وتلبية حاجاته النفسية والعاطفية، وغير ذلك من وظائف الجواري في زمن مالك بن دينار، أو زمن النص وهو غير وارد لفظيا في النص، لكن لكل فعل مسببا[2].
- **دافع المتعة والنسيان:** وقد تجسد في اقبال مالك بن دينار على شرب الخمرة في النص، قبل وفاة ابنته بدافع الاستمتاع والادمان، ولكن بعد وفاة ابنته فقد تعاطى للخمرة بدافع نسيان ألم فقدان ابنته وفراقها[3].
- **دافع النجاة:** وكان سببا في مجموعة من الأفعال في القصة:

(1) الثوابين: ص 222، 225.
(2) الثوابين، ص223.
(3) نفسه، ص 223.

- كهروبه من التنين، ولجوئه الى الشيخ وطلبه المساعدة.
- سيره صعودا الى الجبل، وإشرافه على النار والجنة.
- نداء الملائكة لتوجيهه وارشاده نحو ابنته التي كانت بمثابة الخلاص[1].

- **دافع الثوبة:** وهو دافع حكم جل أحداث النص، وكان تقريبا جوابا للسؤال الذي طرح في بداية النص **(روي عن مالك بن دينار أنه سئل عن سبب توبته)**[2].

إذا كانت الدوافع باختلاف أنواعها نصية كانت أم سياقية هي المحرك لكل أحداث النص، فإن مبحث العلائق يبحث في أسباب تشكل مختلف أشكال التفاعل بين الشخصيات ويحدد طبيعتها.

العلائـــق:

بديهيّ أن كل قصة تتأسس على علائق تجمع الشخصيات وتحكم التفاعل والتأثير المتبادل بينها، في إطار برنامج سردي، ووفق رؤية سيميائية محددة المحاور، فتكون هي الأخرى رافدا من روافد إنتاج الأحداث، فكل شخصية هي فاعل أو مُنجِز لفعل، تثير وتتأثر، وتنتج انطباعا أو حالة نفسية محكومة إما بمحور الرغبة أو الصراع، أو محور التواصل، وقصتنا مالك بن دينار تحفل بشبكة من العلاقات، كانت المصب والقلب المولد للأحداث.

1 – **علاقة مالك بن دينار بالجارية:** علاقة سلبية تميزت من جهة مالك بالأخذ دون العطاء، فهو حسب ما حكى عن نفسه وعن الجارية كان المستفيد الأكبر من كل برنامج أفعالها، ولم يذكر أنه قام بشيء لصالحها، ولم تصرح أو تتحدث عن نفسها بحكم الرؤية المهيمنة للسارد على الأحداث والشخصيات، ربما لم تكن ذات أهمية بالنسبة لوجهة نظره السردية، رغم العشق المتبادل والمصرح به من طرف البطل الذي يعتبر سلوكه استجابة أو ردة فعل طبيعية على ما بذلته الجارية من عاطفة جياشة نحوه[3].

2 – **علاقة الجارية بمالك بن دينار:** كل جارية مدينة لمالكها أو سيدها إن صح القول بالخدمة والطاعة والولاء في تلبية كل احتياجاته بموجب عقد شراء، لكن علاقتها بمالكها الشرطي مالك بن دينار تجاوزت حدود الخدمة إلى رابطة عاطفية قوية، اعترف هذا الأخير هو نفسه بها،

(1) نفسه، ص 224.
(2) التوابين، ص223.
(3) نفسه، ص222– 223.

علاقة تكللت بإنجاب ابنتهما الوحيدة فاطمة، فوجودها الوظيفي كجارية تطور ليغير مسار حياة البطل كليا، ويعلن نجاح البرنامج السردي لمالك بن دينار مع الجارية. ويمكن التمثيل لهذا التواصل المزدوج المتحقق بما يأتي[1]:

- المرسل (الشخصية الرئيسة البطل مالك بن دينار) – الرسالة: الحب والمعاشرة الحسنة – المرسل إليه: الجارية

– المرسل (السارد البطل مالك بن دينار) –الرسالة: الاستقرار وتكوين عائلة – المرسل إليه: المتلقي.

3 – **علاقة الشرطي مالك بن دينار بالخمرة:** علاقة تعمدنا إلقاء الضوء عليها لسببين جوهريين:

أولاهما: أنها تعتبر قوى فاعلة تضطلع بما تضطلع به الشخصيات في النص.

ثانيهما: هو أن الخمرة كانت مفتاحا لكل العلائق التي ربطها البطل مع باقي الشخصيات، وموجها للأحداث فلقد حضرت الخمرة قبل لقاءه بالجارية **(وكنت منهمكا على شرب الخمر، ثم إني اشتريت جارية نفيسة)**[2]، وكانت بطلة لأحداث قصته مع مولودته فاطمة، وقبل أن يدخل في جو الرؤيا كان ثملا. والملاحظ أن علاقة مالك ابن دينار بالخمرة تطبعها الرغبة المحكومة بالإدمان، والمتعة غير المعلنة في ثنايا القصة، لكنها لعبت دورا مهما في توجيه الأحداث، ففي جو الخمرة كون مالك ابن دينار أسرة ورزق بمولودة، وعاشا أحاسيس مختلفة، عاشا السعادة والحزن، والخوف والطمأنينة، والخمرة أيضا كانت من جنود التوبة وأحد المسببات التي قادته إليها، مما يجعل برنامجه السردي مع الخمرة ينجح، ويتكلل التواصل بالنجاح. وهو متعدد كما سنمثل له:

- المرسل: مالك ابن دينار –الرسالة: المتعة – المرسل إليه: الخمرة

- المرسل: مالك ابن دينار–الرسالة: الحزن –المرسل إليه: الخمرة

4 – علاقته بابنته فاطمة: تعتبر علاقة مالك بن دينار بابنته فاطمة من أسمى وأشد العلاقات تميزا في القصة ككل، فهي عقدة النص وجوهره التي احتفت بها القصة أشد احتفاء، العلاقة التي كانت أرضا خصبة لمشاعر وقيم متباينة. فالحب الذي منحته فاطمة لأبيها كان كفيلا

(1) نفسه، 222–223.

(2) التوابين، ص222.

بهز كيانه وامتلاك فؤاده، وفقدانها كان كفيلا أيضا بهدم كيانه وتحطيم فؤاده، وتأهيله نفسيا ومعنويا لقبول التوبة بعد إمعانه في المعصية، هي علاقة أبوية عائلية تحكمها العاطفة.

5 – **علاقة فاطمة بمالك بن دينار:** هي علاقة هداية وإرشاد، فهي من حاولت منعه وتنيه دون كلل عن شرب الخمرة مرات عديدة، ولها الفضل في تغير مسار حياته من مدمن على الخمر إلى رجل تائب.

والملاحظ مما سبق أن البرنامج السردي الذي يجمع البطل مالك بن دينار بابنته فاطمة كان حافلا بالأحاسيس والمشاعر التي عكست لنا دواخل الشخصيتين المهمتين في النص **(مالك بن دينار/ فاطمة)**. ولقد كانت حاسمة في توجيه دفة الأحداث من بدايتها إلى نهايتها في ذات الوقت، حيث تراوحت العلاقات فيها بين الرغبة الملحة في الاتصال والاتساق بين الذواتين الرئيسيتين **(مالك\فاطمة)**، والصراع لتحقيق الانفصال عن الموضوع وهو الخمرة، بالإضافة إلى عامل الموت وما خلفه من حزن في نفسية البطل في المراحل الأخيرة من القصة، وبذلك يكون تمثيل هذه العلائق سيمائيا كما يأتي:

المرسل: مالك ابن دينار – الرسالة: الحب والألفة والحنان –المرسل إليه: الصغيرة فاطمة

ومحورين آخرين يحكمهما الصراع والتنافر وهما:

- المرسل: فاطمة – الرسالة: التوقف عن شرب الخمر – المرسل إليه: مالك بن دينار.

- المرسل: مالك بن دينار – الرسالة: الفقد – المرسل إليه: الموت

علاقة مالك بن دينار بالتنين: علاقة نفور وخوف.

علاقة الثنيين بمالك بن دينار: لعب التنين دور المنبه والمرشد في طريق الهداية والتوبة.

وبناءً عليه يكون البرنامج السردي لهاتين الشخصيتين، قد نجح وحقق المبتغى منه، فالثنيين الذي قاد البطل في رحلة مطاردة يطبعها الخوف والهلع، انتهت بوصول الشرطي السكير إلى بر التوبة والهداية. ونمثل له على هذه الشاكلة:

- المرسل: التنين / الرسالة: (الزجر والهداية) / المرسل إليه: مالك بن دينار.

- المرسل: مالك بن دينار –الرسالة: قصته مع التنين – المرسل إليه: السائل والمتلقي.

علاقة مالك بن دينار بالشيخ: هي علاقة حماية ونصح وإرشاد.

الملاحظ في هذه العلاقة أنها تطورت عبر مراحل بدأت بطلب مالك بن دينار الغوت والمساعدة من الشيخ، وعجز هذا الأخير في البداية عن الاستجابة، لكن مالك بن دينار قاده خوفه للعودة إلى الشيخ وطلب نجدته مرة ثانية، مما دفعه إلى تقديم المساعدة إليه وإرشاده إلى الجبل. ليكون الشيخ عاملا مساعدا في نجاح البرنامج السردي بينه وبين شخصية مالك بن دينار،

والذي نمثل له ب: **المرسل: مالك بن دينار – الرسالة: الغوت والنجدة – المرسل إليه: الشيخ**

علاقة الشيخ بمالك بن دينار: علاقة التوجيه والارشاد.

وعلاقات أخرى ثانوية كانت عوامل مساعدة في طريق التوبة والتحول، مثل الأطفال والملائكة التي لم تكن له علاقة بهم، لكنها كانت صلة وصل بين مالك بن دينار الشرطي السكير ومالك بن دينار التائب العائد إلى الله.

والحديث عن العلائق أو العلاقات بين الشخصيات مرتبط بزوايا النظر السردية، بمن يحكي عمن يحكي، وبأي طريقة في السردية الحديثة، وبعض الأشكال والأجناس السردية الأخرى كالرواية.

التحـــولات:

إن الانتقال من حافز لآخر، ومن وضعية الى أخرى هو ما يسمى بالتحول أو التقلب. يقول: توماشفسكي "**التحول هو المرور من وضعية إلى أخرى**"[1]. كما يقترن التحول بالشخصيات وبنفسياتها ودوافعها. ويرى الدكتور محمد بن عبد العظيم بنعزوز أن: "**تحوّل السرد من الوجهة التي كان يقصدها في السابق إلى وجهة أخرى مرتبط بتحول الشخصية ونفسيته**"[2].

وعليه فقد شيد البناء الحكائي في قصة مالك بن دينار على رهان التحول، فالتحول من حال السكر والبعد عن الله إلى حالة الثوبة والرجوع إلى جادة الإيمان، وهو ما شكل برنامج القصة ككل، التي جاءت كما ذكرنا سابقا جوابا لسؤال ضمني كيف تاب مالك ابن دينار؟ وما سبب توبته؟ فصيغت الأحداث على نحو مترابط من بدايتها إلى آخرها، لتبرير هذا التحول الذي يعتبره

(1) الشكلانيون الروس: نظرية المنهج الشكلي، ترجمة ابراهيم الخطيب، المؤسسة العربية للأبحاث، بيروت، ط1، 1982م، ص 186.

(2) محمد بنعزوز: معجم مصطلحات الأدب الإسلامي، ص64.

الراوي/البطل[1] إنجاز وحدث تاريخي مهم في حياته، فكل هذه الأحداث تخدم هذا المشروع السردي الكبير، الذي تتخلله تحولات كبرى كانت سببا أو نتيجة في تنامي الأحداث، حيث نجد في التحولات:

- **التحول من العزوبة إلى الاستقرار العائلي:** هي مرحلة كان فيها البطل يعيش التيه الروحي والفراغ العاطفي، بسبب ارتمائه في أحضان الخمرة، لكن حدث اقتنائه للجارية شكل محطة شهدت حياته خلالها تطور معطياتها السلبية. حيث بات يعيش في كَنَفِ دفء الأسرة، وانعكست ظروف المعاشرة العاطفية والأبوية وما رافقها من مشاعر العشق والحنان على حالته النفسية إيجابا. وضْع توج بولادة فاطمة التي أدخلت البهجة والسرور إلى قلبه[2].

- **التحول من السعادة والرضى إلى الحزن والحسرة:** حالتين نفسيتين متناقضتين عاشهما البطل، وهي ظاهرة إنسانية تحتكم إلى قانون القضاء والقدر، فحياة الإنسان وحركاته وسكناته ومعيشته ورزقه ومماته مرتبط بإرادة الله عز وجل يقول الله تعالى" **إِنَّ اللهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الغَيْثَ وَيَعْلَمُ ما في الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْس بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ، إِنَّ اللهَ عَلِيم خَبِير**"[3]. قوانين ترجمتها القصة من خلال العطاء أو الفقد، فولادة فاطمة كانت منحة سعادة وحبور من الله، لكن فقدها شكل صدمة عاطفية ونفسية قوية، أعطت تحولا جذريا في مسار حياة مالك بن دينار، ليدخل في مرحلة مظلمة من الحزن، وظف فيها الخمرة – على غير العادة – من المجون والاستمتاع بلذة الخمرة إلى الاحتفاء بإحساس الفقد والشوق إلى ابنته ورثائها. وهو وضع نفسي مهد لمشروع التغيير الكبير في شخصية مالك بن دينار والقصة الإطار ككل[4]

- **فاطمة بين الحياة والموت:** لعبت شخصية فاطمة دورا فعالا في تطور شخصية أبيها مالك ابن دينار، فكانت القوة الأكبر التي مارست البناء والهدم في سيكولوجيته وتحكمت في مختلف تلويناتها، وكأنها أخذت تفويضا من القدر نفسه، لتقوم بالتعديلات اللازمة في مسار حياته، استكمالا لوظيفتها في الارشاد والتوجيه، فمنعته من شرب الخمر في الدنيا وناشدته بالتوبة في الأخرة، لكن باختلاف الطريقة لهداية الشرطي السكير بين حياة الدنيا والاخرة. ففي الدنيا كان فعل التوجيه سلوكيا ماديا حينما كانت تمنعه من شرب الخمرة بهرقه، لكن بعد موتها مارست ذلك بشكل

(1) إذا جاز لنا حذف المسافة بين السارد ومالك بن دينار لاعتبارات وقناعات نقدية منهجية لها علاقة بمشكل التجنيس ووظائف السارد في الأشكال السردي

(2) الثوابين: ص22.

(3) سورة لقمان، الآية 34.

(4) الثوابين: ص222.

معنوي في عالم الرؤيا في الحكاية المؤطَرة، لاختلاف أفعال الإنسان بين عالم الشهادة وعالم الغيب بعد الموت، لكن في عالم الرؤيا والتخييل يصبح المستحيل ممكنا، ففاطمة الطفلة المدللة، التي لم تتعدى العامين من عمرها ائتمرت كل قوى الاخرى بإمرتها، بعدما إقتصرت في حياتها على هرق الخمر من يد أبيها مستغلة شغفه وحبه لها في الدنيا، وأصبحت قادرة على الانتقال بسرعة البرق من مكانها إلى حِجر أبيها، كما استطاعت صرع التنين الذي أمات أبيها خوفا وهلعا بومضة عين، قدرات خارقة ما كانت لتملكها في عالم الأشهاد[1]

- **التحول من الخوف إلى الطمأنينة:** عاش البطل لحظات صعبة لحظات من الهلع والخوف في واقع الرؤيا، بسبب المطاردة المستمرة للتنين له، مطاردة لم يسلم منها ومن تأثيراتها النفسية إلا بعد لقاءه بابنته المتوفات في الجبل، لتدخل السكينة والطمأنينة إلى قلبه، ويكون في أما

الملاحظ في هذه القصة على عكس القصص البطولية و الدرامية، ان هناك ندرة في التحولات على مستوى الاحداث، التي تصب في الحدث الأكبر وهو التحول من الاذناب إلى الثوبة، وذلك نظرا لخصوصية هاته التجربة الادبية السردية، التي قد ندخلها فيما نشاء الاصطلاح عليه بباب الموعظة أو الأدب الإسلامي، فالسارد في هذه القصة يمسك بخيوط السرد ومتحكم بمساراته، فهو المصدر الوحيد للمعرفة بمعطيات حياة الشخصيات، بحيث أن احتكار السارد البطل للحكي عن باقي الشخصيات جعلها شخصيات سلبية تخضع لسلطته، لذلك فلم تعرف التغيير والتحول في حياتها بقدر نظيريهما الدي طرأ على حياة البطل، مذ ولادة فاطمة هذا من جهة، ومن جهة أخرى أعطى النفس السيري للقصة شحا في الأحداث، فالسارد البطل مالك بن دينار يحكي عن حياته، ومن ثم فهو المسؤول الأول عن تدفق الأحداث التي كان لها مسار واحد هو حياة مالك بن دينار من المعصية إلى التوبة، بحيث لعبت باقي الشخصيات المؤثرة والمتأثرة على قلتها محطات لتربية وتهذيب البطل فقط، فهي عوامل مساعدة في مشروع توبة مالك بن دينار.

المبحث الرابع: الثنائيات والدلالات

الثنائيـات:

عبر الوظائف ننتقل من الظاهر إلى الباطن، من السطحي المشتت إلى العميق المؤسس والمتناغم، لذلك تحدث اللسانيون عن أهمية البنية العميقة، كما تحدث المؤولون عن أهمية الباطن، والبنيويون عن البنية والنسق...وما يجمع بين هذه المنظورات هو اعتبار النصوص مجالا للإظهار والإخفاء، لكن الأساسي هو الجزء المتخفّي لا الظاهر. فكيف تساعدنا الثنائيات والتشاكلات

(1) الثوابين، ص 223.

النصية والدلالية والتقابلات في بناء المعنى والكشف عن رؤية النص المضمرة؟ فبدون هذه الإجراءات النقدية والتأويلية لن يحصل الفهم يقول محمد بازي "**الفهم هو الحبل الرابط بين العوالم، والعقول والذاكرات، والتصرفات، والمواقف، والكتابات والتأويلات، والأقوال والتفهمات**"[1].

وقصة مالك بن دينار غنية بهذه الثنائيات والتقابلات، التي تنهض بالمعنى الخفي والرؤية المضمرة للنص، والتي سنحاول الوقوف عليها من خلال استخراج كل الثنائيات في النص:

وأولى الثنائيات حضورا، هي ثنائيات الاتصال والانفصال، حيث يقول عنها الدكتور محمد بن عبد العظيم بنعزوز: **هي كذلك من الثنائيات الوجودية الكبرى بالنسبة للإنسان. فتاريخ الإنسان قبل ولادته وبعد مماته قائم على علاقتي الاتصال والانفصال**[2]. **ويقول الله تعالى " كَيْفَ تَكْفُرُونَ بالله وكُنتُمْ أَمْوَاتا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْه تُرْجَعُونَ**[3]". وقد تمظهر الاتصال ونقيضه الانفصال في محطات عدة في القصة:

1_ الاتصال

- **اتصال مالك بن دينار بالخمرة:** اتصال غير طبيعي مبني على انفصال ايماني سلوكي.

+ **اتصال بطل القصة بالجارية:** إن العلاقات العاطفية من الظواهر البشرية الاجتماعية التي تدخل ضمن خانة الاتصال، وأشهرها الزواج كنتيجة لاجتماع واتصال طرفين، وفي هذه القصة فثنائية الاتصال حاضرة من خلال اتصال البطل بالجارية، وارتباطه بها ارتباطا خارج مسمى الزواج. والاتصال أيضا حاضر في القصة بعدما رزق الثنائيين مالك بن دينار والجارية بالمولودة فاطمة.

وندرج في خانة الإتصال أيضا، **ثنائية الألفة والفردانية:** وما يترتب عنها من أحاسيس ومشاعر عاطفية كالحب والحنان، اللذان ميزا علاقة مالك بن دينار بصغيرته فاطمة، بعد حياة طويلة قضاها وحيدا بين أحضان الخمرة.

(1)محمد بازي نظرية التأويل التقابلي، دار الأمان الرباط الطبعة 1، 2013، ص88.

(2) محمد بن عبد العظيم بنعزوز الغرابة بين الدلالة والتلقي، مؤسسة اليمامة، الرياض، الطبعة 1، 2009/1430م، ص53.

(3) سورة البقرة، الآية28 .

2_ الانفصال:

وتمثل في الفقد بعد العطاء بموت فاطمة وانفصالها عن والدها، وما ترتب عنه من مشاعر الحزن والوحشة. بالإضافة إلى ثنائية الاتصال والانفصال وهما أهما ثنائيات في القصة ككل، فإن هناك أنواع أخرى من التقابلات الدلالية، والثنائيات الضدية، حيث نجد مثلا:

- **ثنائية الخوف والرهبة والأمن والنجاة:** وتتجلى في حدث مطاردة التنين لمالك بن دينار، ونجاته بعد لقائه بابنته فاطمة في جبل الودائع أو الأعمال الصالحة.

- **ثنائية القوة والضعف:** فحدث ولادة فاطمة أعطى قوة معنوية ووجدانية لمالك، بسبب السعادة والبهجة التي بثها في حياة مالك بن دينار، لكن الحزن على موت فاطمة خلف ضعفا وانكسارا، كان لابد منه لأن الأحزان رغم قسوتها تضل مدرسة لتهذيب النفس وتطويعها.

الخلاصـــة:

ونحن نحلل الثنائيات المتحكمة في النص وجدنا هيمنة ثنائيات الاتصال والانفصال التي مثلت الموت والحياة أقوى تمظهراتها، فمالك بن دينار مات قبل وفاة ابنته فاطمة، مرة موتا معنويا عندما مات الايمان في قلبه ببعده على الله، وآخر مادي وذهني ادراكي عندما نام تحت تأثير السكر، وموت سبقته حياة وجدانية عاطفية مرتبطة بالعلاقة الزوجة بين مالك بن دينار والجارية من جهة، وعلاقة أبوية عاطفية قوية لابنته فاطمة. إن الموت الرمزي في الرؤيا المؤقت نذير وبشير له من الله وان كان في فضاء اللاوعي والحلم، فقد كان سببا لانبعاث حياة التوبة والطاعة. وإن كل ما سلف من ثنائيات للاتصال والانفصال في صيغة الموت والحياة، وثنائيات في صيغ أخرى فهي عملت وفق هذا الحقل الدلالي الأساس في التشكل المعنوي للحكاية وهو:

+ **اتصالا:** اتصال مالك بن دينار بالخمرة، وادمانه عليها.

– **انفصالا:** توبته بإقلاعه عن شرب الخمرة.

+ **اتصالا:** اتصال الروح بالجسد ولادة فاطمة.

– **انفصالا:** انفصال الروح عن الجسد موت فاطمة

وبناء على ما سلف في مبحث الثنائيات في قصة مالك بن دينار، خرجنا بدرس مفاده أن الحياة مبنية على سيرورة قانون الاتصال والانفصال، التي تخضع له كل المخلوقات جمادات كانت أو نبات أو حيوانا أو إنسانا، وكل هذه الكائنات تدخل مع بعضها البعض في علاقات فزيائية

محكومة بالبعد والقرب والاتصال والانفصال، والاقبال والانصراف أو الاقلاع. وهي أمور في معظمها تشبه الحياة والموت فالولادة هو اتصال الروح بالجسد والموت هو انفصالها عنه، يقول الدكتور "محمد بن عزوز" مشبها بعض مظاهر التواصل " **وجميع مظاهر التنافر تدخل في خانة الانفصال**[1]".

دلالـــة النص:

1) **الدلالة السرديـــة:**

ويتعلق الأمر بالصيغة أو الصيغ الحكائية السردية، التي نهجها المؤلف لعرض القصة أو المادة الحكائية بما يخدم الرسالة التي يريد تبليغها للمتلقي في الكتاب ككل وقصة مالك بن دينار على الخصوص، وأول ملاحظة يسجلها القارئ لقصة مالك بن دينار من خلال رؤية بصرية أولى، هو قصر الفضاء النصي وهذا الانكماش في النص يوازيه تقلص على مستوى الحدث، ووحداته السردية، والمتمثل في قصة توبة مالك بن دينار المسببات والنتائج، ونسجل أيضا ضيقه زمانيا بغياب المؤشرات الدالة عن التحول في الزمان، واعتماد تقنية الحذف الزمني السردي، وغياب الفضاء ووحدته، باستثناء فضاء الآخرة أو يوم القيامة، أيضا قلة الشخصيات وثباتها في القصة الإطار **(مالك بن دينار، الجارية، الابنة فاطمة)**، وشخصيات أخرى غرائبية تنتمي لعالم الرؤية **(الشيخ، الثنيين، الملائكة، أطفال الجبل)**. ونسجل أيضا هيمنة الخطاب المسرود عوض المعروض، والمحايث بهيمنة الصوت الواحد (السارد) أثناء الحكي، وهذه الخصائص تميز الخبر عن باقي الأجناس السردية كالحكاية والقصة. لكن اختيار المقدسي لهذا الجنس في اعتقادنا قد يكون له ما يبرره من الإكراهات والدوافع وهي:

- ضرورة أن تكون قصص التأسي والاعتبار أو قصص التوبة قصيرة، لأن وقت مقام النصح والإرشاد يكون محدودا زمنيا عادة، فهي تحكى في مجالس العلماء وخطب الجمعة ومنابر المساجد ومجالس الاهل والعشيرة، وكل إطالة أو إطناب في الخطاب قد يضجر السامع، ومن ثم يؤدي إلى فشل الرسالة التي ستصبح مملة.

- تخضع القصة الخبر لقصرها، للتأويل والتمطيط والافتراض بربط الخبر بسوابقه ولواحقه، وتفصيل أحداثه، وهو تفصيل يجلي في البنية السطحية قوانين مضبوطة، كانت افتراضية في الخبر. وقد عبر عبد الله العروي عن هذا الامتداد والتوسع بقوله: **(كثيرا ما نتخيل ظروفا**

(1) عبد العظيم بنعزوز، الغرابة بين الدلالة والتلقي، ص 54.

مكملة، ونطعم المعلومات المتوافرة لدينا فنحول الخبر إلى قصة)[1]، ومن ثم فمجموعة من الأحداث في سيرة ثوبة مالك بن دينار جاءت ناقصة ومكثفة، مثل قصة وطبيعة علاقته بالجارية، وقصة وظروف عمله في الشرطة، وأسباب وملابسات مرض ابنته فاطمة...إلخ وتجاوز وإقصاء المؤلف لهذه المعطيات من حياة البطل، ربما هو ترجمة صادقة للقصة كما سمعها فالكذب في هذه المواقف يضرب صدق الناصح او ضارب المثل، فسرد مثل هذه الأخبار يتطلب التحري عن هذه الأخبار، او لعدم جدوى هذه الاحداث لخطاب القصة ربما، لكن بالرغم من هذه الأسباب الخفية وغير المصرح بها في النص، وكذلك الوصف المتعلق به في كتاب التوابين، فهذه المعطيات الحياتية تفرض نفسها أثناء القراءة من خلال التأويل والتخييل المكمل الذي تحدث عنه الدكتور عبد الله العروي، والذي يعطي للخبر متعة فيجعل القارئ من خلال تأويله للأحداث يصبح مشارك فيها ومساهم في بنائها.

وخبر مالك بن دينار جزء من هذه النصوص المسرودة، حيث وظف فيها مجموعة من التقنيات السردية والتي نعرض لها أسفله كما يلي:

- **حضور ساردين:** سارد من الدرجة الأولى يسند السرد لسارد داخلي يتحدث بضمير المتكلم.
- **يوظف زمنين:** الزمن الطبيعي وهو نادر في القصة **(ليلة النصف من شعبان، ليلة الجمعة، عشاء الآخرة)** وزمن نفسي ذاتي طاغ على مجريات الأحداث، عكس تطور نفسية الشخصية الرئيسة مالك بن دينار.
- **الخطاب المسرود والخطاب المعروض:** استعماله لأسلوب سردي تراوح فيه الخطاب بين الخطاب المسرود في القصة الإطار، والخطاب المعروض، الذي وظف فيه الحوار الخارجي وهو كثير في القصة المؤطرة.

2) دلالة قصدية:

نقصد بها الرهانات والآمال التي يعقدها المقدسي على النص، ويعتمد عليها في الدفع بأفكاره ومعتقداته الإيديولوجية نحو المتلقي أو القارئ المفترض، لتعميم وجهة نظره من قضايا العصر وخلق نوع من المشاركة الفكرية والإبداعية عبر واسطة تجربة الكتابة، التي تعد بالضرورة نموذج حياة وما يؤمن به المؤلف، خصوصا إذا تعلق الأمر بكتاب تربوي/دعوي لفقيه ورجل دين،

(1) سعيد جبار التوالد السردي قراءة في بعض أنساق النص التراثي، طبع بدعم وزارة الثقافة، الطبعة الأولى 2006، ص18.

هو الإمام الزاهد أبي احمد المقدسي، الذي كان في زمانه علما ورجل من رجالات الفكر والمعرفة، وصناع الرأي في عصر من أزهى العصور الإسلامية، ألا وهو العصر العباسي الذي بلغ فيه المجتمع العربي والإسلامي الرقي الفكري والحضاري، وكثرت الفتن والإشكالات الدينية والعقدية، بدخول عناصر جديدة إلى دار الإسلام، نتجت عنه مشاكل اجتماعية وأخلاقية استدعت تدخل العلماء والفقهاء، لتصحيح الانحرافات التي ظهرت آنذاك، مما دفع بالمؤلف إلى اختيار الخطاب المناسب لرسالته من أجل الدفع بالناس إلى التأسي والاستفادة من تجارب التائبين، يقول كاتب مقدمة تحقيق كتاب التوابين: **(ولا شك أن مطالعته بحرارة وشوق توقظ في الإنسان التقوى التي تحمله على التقرب من الله تعالى، بما يقوم به من الانسلاخ عن الرذائل وبعد عن أسبابها، ومن تحل بالفضائل والتماس أسبابها وميسراتها)**[1]. وكما هو معلوم أن توبة مالك بن دينار هي توبة عن الإدمان الخمر، الذي استهل المقدسي مشروعه الأدبي الوعظي بالحديث عنه في مستهل قصة الملكين هاروت وماروت مع الخمر أيضا، ولما لا وهي أم الخبائث في ثقافتنا الإسلامية، والتي أخذت حيزا من أحكام القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، واتفقت على ضررها بالنسبة لصحة والعقل، القوانين السماوية والوضعية معا، وهي سبب تدمير أفراد وشتات أسر إلى يومنا هذا، يقول الله تعالى: **(إنما يريد الشيطان ان يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل انتم منتهون)**[2].

3) دلالة واقعية:

تتجسد من خلال شخصية مالك بن دينار الواقعية التي عاشت في زمان بنو العباس، الحاضرة من خلال الدلالة الرمزية[3].

4) الدلالة الدينية:

تبدو واضحة من خلال التناص الحاصل بين نصوص القرآن والسنة، وأحداث النص، فمسألة الإحسان إلى البنات وتفضيلهن، **وارد في السنة النبوية، وهو ما يفسر قوة حب وارتباط مالك بن دينار بابنته فاطمة**[4] **التي تعتبر صدقة جارية وسببا من أسباب مغفرة الذنوب وشفاعة**

(1) كتاب التوابين ص5 .

(2) سورة المائدة، الآية 91.

(3) هي الدلالة ذات البعد الرمزي والتي تستخلص مما ترمز له الكلمات الموظفة في النص الأدبي وتحيل عليه في الواقع التاريخي.

(4) عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا تكرهوا البنات فإنهن المؤنسات، الغاليات، [المُجَهّزات]»

أولاد المسلمين لوالديهم واردة في الصحيح[1]، وبالرغم من خيالية أحداث الرؤيا في القصة المؤطرة، فهي تعتبر حق في ثقافة مالك بن دينار الإسلامية بالكتاب والسنة أيضا لقوله تعالى [2] **"إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ"**[3]، وقوله عز وجل: **"إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ"**[4].

5) دلالة نفسية:

أنه بموت ابنته أغلقت أمامه أبواب الحياة، وتأثر نفسيا بهذا الفقد المفاجئ، مما انعكس سلبيا على حياته، فعاد إلى أحضان الخمرة وتمادى في الشراب، فهو في انغماسه هذا يقوم بردة فعل قاسية تجاه نفسه أولا، لأنه المتضرر الوحيد في الحياة بعد موت ابنته. وبالتالي لا يحصل التوازن النفسي إلا بالقرب من الله والعيش في كنف الأسرة وسعادتها الغامرة، قال تعالى:(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى)[5]

6) دلالة اجتماعية:

تبدو جلية من خلال الدور الذي لعبه الدفء والاستقرار العائلي في مسيرة توبة مالك بن دينار وحياته ككل، منذ شرائه الجارية.

7) دلالة إيمانية:

مؤداها ان رحلة الحياة انعكاس لرحلة ما بعد الموت وان أي إفساد للأولي، هو إفساد للأخرى تماثليا، واي إصلاح فهو صلاح فيهما معا، والعبد مهما أخطأ وأذنب يبقى باب التوبة مفتوح في وجه التائبين لا يغلقه إلا الموت، وقد يضل مفتوحا من خلال الصدقات في الدنيا، والتي تعتبر تنشئت الأبناء أو فقدانهم إحداها.

---

(1) أنظر كتاب التوابين، ص.225.

3 سورة الأنفال: 43

4 سورة يوسف: 4 – 5.

5 سورة طه، الآية 124

8) دلالة ابتلائية:

نستخلصها من تعريف "**الابتلاء في اللغة مصدر فعل ابتلى، وأصله: بلا، فيقال بلوتُ الرجلَ بلواً وبلاءً، وابتليتُه: اختبرته، وبلاه إذا جرَّبه واختبره، وابتلاه الله: امتحنه، والاسم: البلوى والبلاء. والبلاء: الاختبار يكون في الخير والشر**[1]"، وجاء في الكليات البلاء في الأصل: "**التكليف بالأمر الشاق...لكنّه لمّا استلزم الاختبار بالنسبة إلى من يجهل العواقب ظُن ترادفهما**[(2)]"، قال الله تعالى: **(الذي خَلَقَ المَوْتَ والحياةَ ليَبلوكُمْ أيّكمْ أحْسَنُ عَمَلاً**"[3]، فقبل الابتلاء ازدهرت حياة مالك بن دينار، بعدما رزق بطفلة ملأت أيامه الخمرية بهجة وسرورا، لكن انامل الموت جعلتها ذكرى أليمة وحلم جميل لم يعمر طويلا، فلكل شيء إذا ما تم نقصان لا يفرحن بطيب عيش إنسان، فالقبول بالقدر خيره وشره إيمان. فكل شيء يحصل في حياة الإنسان فيه خير له، فموت فاطمة لم يكن نقمة بل هو من كان سببا في توبته، ومن ثم يبقى عقدة القصة ككل.

النتائج:

بناء على ما سبق من مراحل التحليل المختلفة، خرجنا بملاحظات واستنتاجات حول مجريات القصة، ودلالاتها الإبداعية والنفسية، وحتى الاجتماعية والتاريخية، والتي سنحاول أن نجملها في النقاط أسفله:

- أول ملاحظة تستأثر باهتمامنا هي العبارة التي بدأ بها النص "**روي**" "**والمتعلقة بالرواية حول شخصية مالك بن دينار التاريخية التي يصفها المحقق في تعليقه بكونها مجهولة ومتعددة**[4]، رغم قيمة السند أي سلسلة الرواة، أي الراوي أو الرواة الذين خاضوا في سيرة مالك بن دينار، وعلمهم وقيمتهم التاريخية.

- خلق متن القصة الكثير من الغموض من خلال التعارض الحاصل بين سيرة حياة الراوي مالك بن دينار العجمي الأصل البصري المنشأ، المولى لأبي يحيى البصري، وهو كذلك الشيخ الزاهد العالم بالدين وأحكامه ونصوصه قرآنها وحديثها، وبالمقابل الشخصية النصية الحكائيه مالك بن دينار الذي –قال عن نفسه– "**قال: كنت شرطيا، وكنت منهمكا على شرب الخمر**"[5]،

(1) لسان العرب، م 1، ج 5، ص 355.

(2) أبو البقاء أيوب بن موسى: الكليات، ط 2، تحقيق د. عدنان درويش ومحمد المصري (بيروت: مؤسسة الرسالة، 1419هـ/ 1998م، ص41.

(4) التوابين، ص223 .

(5) نفسه، ص223 .

بينما هو في الحقيقة التاريخية تابعي "كان يكتب المصاحف بالأجرة ويقوت بأجرته[1]"، مما يطرح إشكال صدق القيمة الخبرية بسب التعارض الحاصل بين كونه شرطي نصيا وكاتب مصاحف في الأخبار والسير من جهة، وسكير وشخص ورع من جهة أخرى، وهذا بدوره يورطنا في إشكال التجنيس الذي تطرحه القصة بين السيري والحكائي، المتخيل أو الواقعي، لكن بين هذا وذاك يضل الاسم **(مالك بن دينار)** الرابط بين التاريخي والقصصي.

وإن التداخل الحاصل بين الواقعي والقصصي في شخصية مالك بن دينار يجعل القصة أقرب إلى المتلقي ونموذج يحتذى في حياته، فلي التوبة شروط نفسية باعتبارها حقيقة روحية، لا يحصل التغيير إلا بتحققها وهي:

1. الاستعداد الروحي والقلبي.
2. الإحساس بالندم ومعاتبة النفس ولو داخليا.
3. توفير ظروف التوبة وشروطها الاجتماعية (الزواج وتكوين عائلة).
4. إنك لن تهدي من أحببت، لكن الله يهدي من يشاء. وهو الشرط المبني على توفر المؤهلات السابق ذكرها في قصة مالك بن دينار.

- والقصة ترجمت لنا بصدق هذا الاستعداد الأخلاقي في حياة مالك بن دينار الزوج السكير البار بزوجته الذي يبادلها كل الحب، والأب الحنون المتيم بحب ابنته، الذي لا تحول بينه وبين أداء فريضة الصلاة إلا ثمالة الخمر. فالرؤية أو الحلم إنعكاس ومرآة لباطن الذات وتحقيق لرغباتها وإنذار بوصول رسالتها إلى خالقها، والجواب الإلاهي عن رسالة بطل قصتنا، جاء مؤولا ومقصودا" **ألم يأن للدين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله**".

- وكل هذا قدم في قالب سردي مركب، جمع بين الامتاع والاقناع والوضوح، بعيدا عن التعقيد وبلغة سهلة قريبة من الأفهام. ومعتمدا خطابا خاصا ونوعيا مناسبا لغرض الوعظ والإرشاد، ومن غير **الخطاب السردي العربي التراثي**، الذي شكل لنفسه من خلال قصة مالك بن دينار وكتاب التوابين ككل، نوعا او غرضا قائما بذاته.

(1) نفسه، ص.225.

حيث يصف الأستاذ عبد القادر الأرناؤوط ما قام به المقدسي قائلا: **وقد عرض المؤلف لسرد الأخبار بطريقة مشوقة، تحكيها صور جذابة وتشرحها جمل سهلة مألوفة يجني القارئ منها العبرة والفائدة في لطف واشتياق"**[1].

المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم
- ابن قدامة، المقدسي الثوابين، تحقيق خالد عبد اللطيف السبع العلمي، الناشر دار الكتاب العربي بيروت لبنان/ الطبعة السادسة 1421 /2001.
- ابن منظور: أبو الفضل جمال الدين محمد، لسان العرب، د ط، تحقيق عبد الله علي الكبير ومحمد أحمد حسب الله وهاشم محمد، القاهرة، جار المعارف د.ت.
- أبو البقاء أيوب بن موسى: الكليات، ط 2، تحقيق د. عدنان درويش ومحمد المصري بيروت: مؤسسة الرسالة، 1419هـ/ 1998م.
- زكريا إبراهيم، مشكلة البنية، مكتبة مصر، مكتبة مصر الفجالة.
- سعيد جبار: الخبر في السرد العربي القديم، الثوابت والمتغيرات، شركة النشر والتوزيع المدارس، الطبعة 1، 1424هـ- 2004م.
- الشكلانيون الروس: نظرية المنهج الشكلي، ترجمة ابراهيم الخطيب، المؤسسة العربية للأبحاث، بيروت، ط1، 1982م.
- صلاح فضل: نظرية البنائية في النقد الأدبي، دار الشروق، مصر، ط1، 1998.
- كامل الكلاني: النص القصصي، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، جميع الحقوق محفوظة للنشر رقم 8862 بتاريخ 2012/8.
- مجدي وهبة وكامل مهندس، معجم المصطلحات العربي في اللغة والأدب، مكتبة لبنان، بيروت، ط2، 1984.

1 كتاب التوابين، ص5.

- محمد بازي، : نظرية التأويل التقابلي، دار الأمان(الرباط)، الطبعة 1، 2013.
- محمد بن عبد العظيم بنعزوز: معجم مصطلحات الأدب الإسلامي، دار النحوي، الرياض، ط1، 1427هـ/2006م.
- محمد بن عبد العظيم بنعزوز: الغرابة بين الدلالة والتلقي في السرد العربي القديم، مؤسسة اليمامة، الرياض، الطبعة1، 1430هـ/ 2009م.
- محمد بن عبد العظيم بنعزوز: قصة عبد النور بين الاستخفاء والظهور (دراسة لقضايا الفضاء في السرد العربي القديم)، النادي الأدبي بالرياض، ط1، 1428هـ/2007م.
- مرشد أحمد: البنية الدلالية في رواية نصر الله، ط1 دار فارس، بيروت، 2005.
- محمد، ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط1، 1997.
- يمنى العيد، تقنيات السرد الروائي في ضوء المنهج البنيوي، دار الفارابي/ بيروت، ط1، 1990.
- ناصر عبد الرزاق الموافي: القصة العربية، عصر الابداع دراسة للسرد القصصي في القرن الرابع الهجري، تقديم طاهي وادي، ط1، دار النشر للجامعات، القاهرة، 1995.